

لباس "الخزقة المرقعة" عند أهل الطريقة

د. بليل عبد الكريم

ملخص:

ظهرت واشتهرت "الخزقة المرقعة" بين القرن الخامس إلى السابع؛ فيندُر أن يُذكر صوفي بدونها، وتراجِم مَنْ لبسوها كثيرة؛ إذ صار التصوُّف ظاهرة اجتماعية أكثر منه علمية أو مسلك تدبُّن، ليصبح التصوف أحد مظاهر الدولة ورسومها.

و قد رويت في فضائلها و سندها للصحابة روايات و آثار كثيرة، لكن الإشكالية الظاهرة:

ما مدى صحة نسبة الخزقة المرقعة لكبار مشايخ الطرق الصوفية و الصحابة ؟

و ماهي أبعادها الدينية و التربوية التي ساهمت في انتشارها ؟

و في هذا المقال نحرر تاريخ لبس المرقع و أصوله و آدابها و مسانيده، و المصنفات التي حررت فيه.

Summary

The "Patchwork Rag" appeared between the 5th to 7th century; it is rare to mention Sophie without it, and the translations of many of her clothes, as Sufism became a social phenomenon rather than a scientific or a religious attitude, so that Sufism becomes a manifestation of the state and its drawings. I have narrated in its virtues and its support for the Sahaabah many novels and monuments, but the problem is apparent: How correct is the percentage of the patchwork rag for the elders of Sufi roads and companions? What are the religious and educational dimensions that contributed to its spread? In this article we liberate the history of the wearing of the patchwork and its origins and literature and its articles and the works done in it.

مقدمة:

التصوف نزعة روحانية، ظهورها في متكرر في عدة حضارات؛ خاصة الشرقية منها، كتعبير طلب الروح للتطهر، والزهد والتعالي عن المادة، بغية الترقى في سبل الصفاء الروحي، والتسامي في مراتب الكمال الخلقي.

ولم يكن المسلمون بدعا في نزوع طائفة منهم نحو التصوف، ولكل خصائصه الدينية العقدية والحضارية الثقافية، فلكل حضارة هويتها في التعبير عن النزعة الإنسانية، وعقائد تناسب نسقها العام الديني والحضاري.

و أهل التحقيق متفقون على أن التصوف الإسلامي ظهر في البصرة، و برزت أسماء كبرى منها: إبراهيم بن أدهم (ت 161 هـ / 778 م)، و داود بن نصير الطائي (ت 165 هـ / 781 م)، و رابعة العدوية (ت 135 هـ / 752 م)، و معروف الكرخي (ت 200 هـ / 815 م)، و السري السقطي (ت 253 هـ / 867 م)، و الجنيد البغدادي (ت 297 هـ / 910 م)، و بشر بن الحارث الحافي (ت 227 هـ / 841 م)، و أبو الحسين أحمد بن محمد بن عبد الصمد النوري (ت 295 هـ / 908 م)، و أبو سعيد أحمد بن عيسى الخزار (ت 277 هـ / 987 م)، و ابن عطاء البغدادي (ت 309 هـ / 922 م)، و ابن عثمان المكي (ت 291 هـ / 904 م)⁽¹⁾، و غيرهم خلق عظيم.

و كان لأهل التصوف خصائص تفردهم عن غيرهم و تعرف بهم لمن يلحظهم من العامة و الخاص في حليتهم و خطابهم، و مسلكهم، لأجل ذلك أطلقت عليهم مسميات عدة للتواضع على وسمهم بما غلب عليهم دون غيرهم من الطوائف و الفرق و التيارات و أهل المقالات، فسموا بالجوعية و البكاكية و الفقراء و أهل الطريق و النساك و العباد و الزهاد، لكن اشتهر كعلم بالغلب لقب التصوف، لما ظهر من بعضهم من الإقبال على لبس الصوف كأحد مظاهر الزهد، و إن لم يوصوا به أو التزمه كل أعلام التصوف، ثم سرى اللقب عليهم.

و من لبوس الصوف المعبر عن الزهد في متاع الدنيا، ظهر اللباس الممزق و المرقع؛ الذي عرف بالخرقة، و هي لباس للشيخ أصبح يورث و يكسى به المرید كعلامة على التزكية و المبايعة في نفس الوقت.

و هي مظهر كان لدى القبائل و الأمراء بكسوة أركان الدولة و أمرائها و قادتها بحلية ترمز للرتبة و التشريف، و التزكية و المبايعة، مثلها في عصرنا اللباس الرسمي الموحد لأجهزة الدولة في المناسبات

(1) التعرف على مذهب أهل التصوف: أبي بكر إسحاق الكلاباذي، ص(21-26).

الرسمية، أو كسوة أوائل خريجي الجامعات بالرداء و القلنسوة؛ و هي عادة أندلسية انتقلت لجامعات أوروبا كتقليد، ثم العالم.

أولاً: تعاريف.

"لباس الفتوة"، أو "الخرقة"، أو "المرقعة"، أو "الدلق"، يكون قطعة واحدة أو مرقعاً، ويسمى "بالدلق المرقع"، و ما كان من الألوان "الدلق الملمع". والدلق: يسمى دائماً "الدلق الأزرق" مهما تغير لونه⁽²⁾. و هو: قطعة من الثوب الممزق. يلبسه المريد من شيخه الذي دخل في إرادته. يكون فوق جميع الملابس، والظاهر أنه كان من صوف.

ويرى أهل الطريق أن في لبسه معنى المباينة، و عتبة دخول المريد في صحبة الشيخ الذي يتولى تربيته وتهذيب أخلاقه وتقويم سلوكه⁽³⁾.

والمرقعة قطع عدة تخاط مع بعضها، وبعض أهل الطريق يأخذ أثواباً صالحة ثم يقطّعونها، ليخيطوها قطعاً قطعاً، فتسير مرقعة.

ظهرت واشتهرت "الخرقة المرقعة" بين القرن الخامس إلى السابع؛ فيندُر أن يُذكر صوفي بدونها، وتراجع من لبسوها كثيرة؛ إذ صار التصوّف ظاهرة اجتماعية أكثر منه علمية أو مسلك تدبُّن، والقرن السابع هو ذروة التصوف في العالم الإسلامي، فاصبغ الحكام والجيش والعامة بالتصوف ومظاهره، وقامت لأهل الطريق دول بأكملها، وأنشأ أهل الطريق ممالك وإمارات في أماكن عدة، ليصبح التصوف أحد مظاهر الدولة ورسومها.

وكان للخرقة المرقعة أشكال و أحجام و أوزان مختلفة، "ففي الصوفية من يرقع المرقعة حتى تصير كثيفة خارجة عن الحد. قال ابن خباب أبو الحسين صاحب "ابن الكريبي": أوصى لي ابن الكريبي بمرقعته، فوزنت فردة كمّ من أكمامها فإذا فيه أحد عشر رطلاً.

قال جعفر: وكانت المرقعات تسمى في ذلك الوقت: الكيل.⁽⁴⁾

و "الخرقة" عند أهل الطائفة المتأخرين زينة لأولياء الله -تعالى- يعز بها العوام، ويذل بها الخواص، فيحترّمهم الخلق، ويعز عليهم إتيان المعاصي وهم بها.

(2) التصوّف.. المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير، ص 83.

(3) مفاهيم إسلامية: عبد الحميد مذكور، ص 134.

- عوارف المعارف: لأبي حفص عمر السهروردي، ج 5، ص (110 - 114).

- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام: عبد الرازق القاشاني، ص (243 - 442).

(4) تلبيس إبليس: عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، ص 236.

فكان من المقاصد أهل الطريقة أن لباس **الخرقة المرقعة** أعذر على دفع التكلف، وأذهب للكبر، وأقرب للحق، مع الاقتداء بعمر - رضي الله عنه - إذ لبسها مع وجود غيرها لصلاح قلبه، ألا تراه حين لبس غيرها قال: أنكرت نفسي. (5)

قال **الهجويري**: "إن لبس **المرقعة** شعار المتصوف، ولبس **المرقعات** سنة، ومن هنا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: "عليكم بلباس الصوف، تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم" (6). (7) وقال **السهروردي**: "لبس **الخرقة** ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائع في الشرع بمصالح دنيوية.

فلماذا ينكر المنكر لبس **الخرقة** على طالب صادق في طلبه؟ ويقصد شيخًا بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينية، ويرشده ويهدّبه، ويعرفه طريق المواجهيد، ويصّره بآفات النفس، وفساد الأعمال، ومداخل الله، ويسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه، ويستوصي به في جميع تصاريفه، فيلبسه **الخرقة** إظهارًا للتصرف فيه.

فيكون لبس **الخرقة** علامةً للتفويض والتعليم، ودخوله كدخوله في حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم. (8)

ثانيًا: مراسم لبس **الخرقة المرقعة**.

مراسم لباس الفتوة " **الخرقة المرقعة** " من طرف الشيخ للمريد تتم بحضور أتباع الطريق ومشايخه، ويتولى الشيخ القسط الأكبر منها؛ وهي:

1. التطهر والوضوء.

(5) قواعد التصوف: ابن مرزوق، ص 88.

(6) حديث: "عليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة"؛ رواه الخطيب عن أبي أمامة مرفوعًا، وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي. وهو وضاع.

وروي ابن عدي عن أبي هريرة مرفوعًا: "من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان، فليلبس الصوف"؛ وهو موضوع، وله طرق وألفاظ لا تصح.

- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني، ص 191.

- الموضوعات: لأبي الفرج بن الجوزي، ج 3، ص 48.

- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: جلال الدين السيوطي، ج 2، ص 223.

- السلسلة الضعيفة: الألباني، ج 1، ص 296، رقم 90، قال الألباني: موضوع.

(7) كشف المحجوب: الهجويري، ص 252.

(8) عوارف المعارف: السهروردي، ص 75.

2. ثم يأمر المريـد بذلك.
3. ثم توضع الخرقـة بين أيديهما.
4. يقرأ الشيخ سورة الفاتحة.
5. ثم يقوم بإلباسها للمريـد.
6. ثم يبين له سند وصولها إليه.
7. ثم يأخذ عليه عهد الوفاء لشرائطها.
8. ثم يعرفه حقوق الخدمة .⁽⁹⁾

وعند طائفة من أهل الطريق "الخرقة أو المرقعة" محل بركة، وفي إلباسها يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريـد، كسراج يقتبس من سراج. وفي "التأويلات النجمية" فيه إشارة إلى أن قميص يوسف عليه السلام من ثياب الجنة، وهو كسوة كساه الله -تعالى- من أنوار جماله، إذا ألقى على وجهه يعقوب الأعمى يرتد بصيراً. ومن هذا السرّ؛ أرباب القلوب من المشايخ يُلبسون المريدين خرقتهم؛ لتعود بركة الخرقـة إلى أرواح المريدين، فيذهب عنهم العمى الذي حصل على من أحب الدنيا والتصرف فيها. يقول الفقير: هذا من سُنّة المشايخ - قدس الله أسرارهم - فإنهم لبسوا الخرقـة وألبسوها تبرّكاً وتيمناً، وهم قد فعلوا ذلك بإلهام من الله -تعالى- وإشارة، فليس لأحد أن يدعي أنه من الزيادات والبدع القبيحة.⁽¹⁰⁾

ثالثاً: أسماء الخرقـة المرقعة:

يذكر السهروردي أن الخرقـة خرقتان:

1. خرقـة إرادة .

⁽⁹⁾ لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام: عبد الرازق القاشاني، ص (442 - 243).

⁽¹⁰⁾ تفسير حقي: حقي، ج6، ص184.

من المنهج المعرفي لطائفة من أهل الطرق الصوفية تقديم مسالك الاستدلال الحدسية على جميع المسالك، وإلهام الشيخ أعلى درجات اليقين، وهو حجة قائمة بذاتها، لا تستند لغيرها نقلاً أو عقلاً، وما عارضها يؤول بما أو يرد، وعلى هذا المنهج اعتماد كبار أهل الطريق في التفسير، والأخذ عن النبي، وتصحيح الروايات، فما يصح عند أهل الطائفة من الأحاديث والآثار صحيح بالإلهام الرباني والتلقي من الحضرة، ولا يعتد بغيرهم في ذلك؛ لأن مسلك الإلهام أعلى من مسالك الرجال، والقاعدة هنا مبنية على مفهوم "العلم اللدني"؛ فمقام الإلهام من مقام الوحي؛ أي: إنه تعليم رباني، ناتج عن التقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282]، فجاز نسخ حكم الوحي بإلهام الولي؛ نصّاً أو مفهوماً، أو دلالة لزوم أو توجيهاً.

2. خرقة تبرك. (11)

الأولى للمريد؛ بيعة منه لشيخ الطريقة، وإعلاناً بالتبعية لأهلها، والثانية لغيرهم دون التزام بمراسم الطريق و تراتبيته.

والخرقة من مراسم الطريق وخصائصه اللازمة للداخل في أهله؛ فهي إعلان انتماء، ووصف يتحقق به المريد أول قبوله بين إخوانه، ومن أوصاف المريدين "المجاهدة"، وهو حمل النفس على المكافاة البدنية من الجوع والعطش والعزّي.

ولا بد من مقاساة الموتات الأربع:

• الموت الأبيض: وهو الجوع.

• الموت الأحمر: وهو مخالفة الهوى.

• الموت الأسود: وهو تحمّل الأذى.

• الموت الأخضر: وهو طرح الرقاء بعضها على بعض؛ أي: لبس الخرقة المرقعة، هضمًا للنفس ما لم تكن لباس شهرة. (12)

رابعاً: لبس الخرقة المرقعة.

يكاد يُجمع أهل الطرق من مشايخ الطائفة على وراثة لبس "الخرقة المرقعة" بالسند مسلسلاً إلى الإمام عليّ - رضي الله عنه.

فلا تثبت الخرقة إلا بالسند، ولا يلبسها إلا صاحب السند المحفوظ، وقد كثر في مشايخ الصوفية تدوين أسانيدهم وطرقها حينما تكثر، وكذلك مترجموهم من أهل الطبقات والسير والتراجم.

فالسند حافظ لأهلها، ومانع للدخلاء والمدّعين، كما أنه يُعطي من مقام الخرقة، ويكسبها الشرعية الوراثية عن عهد الصحابة وسلف الأمة، ومن مشايخ الطائفة من احتج لها بالسنة، فقد ذكر محمد بن طاهر في كتابه: "باب السنة في لبس الخرقة من يد الشيخ"، فجعل هذا من السنة.

واحتج بحديث أم خالد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى بتياب فيها خميصة سوداء، فقال: "من ترون أكسو هذه؟"، فسكت القوم، فقال رسول الله: "انتوني بأمر خالد"، قالت فأتي بي فألبسنيها بيده، وقال: "أبلي وأخلقني". (13)

(11) عوارف المعارف: لأبي حفص عمر السهروردي، ج 5، ص (110 - 114).

(12) تفسير الحقي: الحقي، ج 13، ص 424.

(13) تلبس إبليس: ابن الجوزي. ص 236.

ومن ذلك ما رواه ابن الملقن عن سلاسل الخرقة المرقعة التي يلبسها، فقال: "وقد لبست الخرقة من جماعات بطرق متنوعات جليلات، منهم..." (14)

وفي ترجمة إبراهيم بن أبي بكر العلوي، قال المؤلف: "ولبس خرقة التصوف من جماعة من الكبار؛ كطاوس الحرمين الحسن بن عليّ الواسطي، ومحمد بن أحمد الأسدي اليميني. وله في لبس الخرقة طرق متنوّعة، ذكرها الشهاب أحمد الرداد في "كتاب الخرقة"، كما أفرد شيوخ المترجم وأسانيده بمدون حفيده الفقيه أبي القاسم، وهو في قدر كراسة، وذكر منهم نحوًا من سبعين شيخًا، وذكر ما أخذ عنهم من الكتب." (15)

فالسند في الخرقة يكون متصلاً بالمشايخ، وكلما علا، زاد مقام لابسها، وهي بمثابة الإجازة العلمية من الشيخ للمريد، وعهد من المريد للشيخ بالسمع والطاعة، والتزام بآداب الطريق التي يُملئها عليه شيخه، وكان لبعض المشايخ أكثر من طريق متسلسل في لبسها، لينتهي الطريق في الإسناد دائماً للإمام عليّ - رضي الله عنه.

وفي خرقة التصوف ثلاث طرق :

1.أحمدية.

2.قادرية.

3.سهروردية.

فأما الأحمدية: فإنه لابسها من يد والده الشيخ محيي الدين إبراهيم المذكور، وهو لابسها من يد شيخه ومربيّه الشيخ الصالح الإمام العالم سيد مشايخ زمانه سيدي أحمد بن الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة المغربي المعروف بابن الرفاعي - رحمة الله تعالى عليه. وأما القادرية: فإنه لابسها من يد شيخه الإمام شيخ العارفين وإمام السالكين شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بعمويه بن سعد بن الحسين البكري السهروردي، وهو لابسها من الشيخ الإمام العالم السيد الكبير صاحب المواهب والكرامات والعجائب الظاهرات أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن حبيكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى الكيلاني.

وأما السهروردية: فإن الشيخ شهاب الدين السهروردي - رحمة الله عليه - لابسها من يد شيخه وعمه الشيخ الإمام العارف الكبير ضياء الدين أبي النجيب عبدالقاهر بن عبدالله بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن

(14) طبقات الأولياء: ابن الملقن، ص79.

(15) فهرس الفهارس: الكتاني، ج1، ص127.

أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ولبسها هو من يد عمه وجيه الدين عمر بن سعد، وهو لبسها من يد والده سعد بن الحسين، ومن يد الشيخ أخي خرج الزنجاني بك، أحدهما مشاركة ليد الآخر. فأما والده فلبسها من الشيخ أحمد الأسود الدينوري، وهو لبسها من الدينوري، وهو لبسها من أبي القاسم الجنيد سيد الطائفة.

وأما أخو خرج الزنجاني فلبسها من أبي العباس النهاوندي، وهو لبسها من الشيخ الكبير أبي عبدالله محمد بن حفيف، وهو لبسها من أبي محمد رويم، وهو لبسها من أبي القاسم الجنيد، وهو من خاله سري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو من حبيب العجمي، وهو من الحسن البصري، وهو من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

كذا وردت إلينا الخرقه من الحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بغير واسطة، وأهل الحديث لا يعرفون للحسن البصري سماعاً من علي رضي الله عنه، مع أنه عاصره بلا شك، فإنه وُلِدَ في خلافة عمر رضي الله عنه، وصحَّ أنه سمع خطبة عثمان - رضي الله عنهما.

وأجمع مشايخ التصوف على أن الحسن البصري صحب علي بن أبي طالب ولبس منه، والله أعلم. (16)

ثامساً: دراسة سنن الخرقه المرقعة.

قال ابن الجوزي: "وقد قرَّروا أن هذه المرقعة لا تُلبَس إلا من يد شيخ، وجعلوا لها إسناداً متصلاً كله كذب ومحال." (17)

وقال الحافظ ابن حجر: "إنه ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرِد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ألبس الخرقه على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحدٍ من أصحابه، ولا أمر أحدًا من أصحابه بفعل ذلك، وكل ما روي في ذلك صريحاً فباطل.. ثم إن من الكذب المفتري قول من قال: إن علياً ألبس الخرقه." (18)

وقال الذهبي: "وما بعد معروف الكرخي فمنقطع، زعموا أنه أخذ عن داود الطائي، وصحب حبيباً العجمي، و صحب الحسن البصري، وصحب علياً - رضي الله عنه." (19)

(16) مناقب الأسد الغالب: ابن الجزري، ص (71-72).

(17) تلبس إبليس: ابن الجوزي، ص 236.

(18) تمييز الطبيب من الخبيث: عبد الرحمن بن علي الشافعي، ص 243.

(19) السير: الذهبي، ج 16، ص 264.

وقال السخاوي: "حديث لبس الخرقة الصوفية؛ وكون الحسن البصري لبسها من علي، قال ابن دحية و ابن الصلاح: إنه باطل." (20)

ويقول ابن تيمية في "تحقيق أصل سند الخرقة": "الخرق متعدّدة، أشهرها خرقتان: خرقة إلى عمر. وخرقة إلى علي.

فخرقة عمر لها إسنادان: إسناد إلى أويس القرني، وإسناد إلى أبي مسلم الخولاني.

وأما الخرقة المنسوبة إلى علي، فإسنادها إلى الحسن البصري.

والتأخرون يصلونها بمعروف الكرخي، فإن الجنيد صحب السري السقطي، والسري صحب معروف الكرخي بلا ريب.

وأما الإسناد من جهة معروف، فينقطع، فتارة يقولون: إن معروفًا صحب علي بن موسى الرضا، وهذا باطل قطعًا، لم يذكره المصنّفون لأخبار معروف بالإسناد الثابت المتصل كأبي نعيم و أبي الفرج بن الجوزي في كتابه الذي صنّفه في "فضائل معروف"، و معروف كان منقطعًا في الكرخ.

و علي بن موسى كان المأمون قد جعله ولي العهد بعده، وجعل شعاره لباس الخضر، ثم رجع عن ذلك، وأعاد شعار السواد.

و معروف لم يكن ممّن يجتمع بعلي بن موسى، ولا نقل عنه ثقة أنه اجتمع به، أو أخذ عنه شيئًا، بل ولا يعرف أنه رآه، ولا كان معروف بوابه، ولا أسلم على يديه، وهذا كله كذب.

وأما الإسناد الآخر، فيقولون: إن معروفًا صحب داود الطائي، وهذا أيضًا لا أصل له، وليس في أخباره المعروفة ما يذكر فيها.

وفي إسناد الخرقة أيضًا: أن داود الطائي صحب حبيبًا العجمي، وهذا أيضًا لم يُعرف له حقيقة، وفيها أن حبيبًا العجمي صحب الحسن البصري، وهذا صحيح؛ فإن الحسن كان له أصحاب كثيرون؛ مثل: أيوب السختياني، و يونس بن عبيد، و عبدالله بن عوف، ومثل: محمد بن واسع، و مالك بن دينار، و حبيب العجمي، و فرقد السبخي، وغيرهم من عبّاد البصرة، وفيها أن الحسن صحب عليًا، وهذا باطل باتفاق أهل المعرفة؛ فإنهم متفقون على أن الحسن لم يجتمع بعلي، وإنما أخذ عن أصحاب علي، أخذ عن الأحنف بن قيس، و قيس بن عباد، وغيرهما عن علي، وهكذا رواه أهل الصحيح.

والحسن (21 - 110 هـ / 642 - 728 م) وُلِدَ لسنتين بقيتا من خلافة عمر⁽²¹⁾، وقتل عثمان (47 ق هـ - 35 هـ / 577 - 656 م) وهو بالمدينة، كانت أمّه أمةً لأم سلمة، فلما قُتل

(20) المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة: السخاوي، ص 331.

(21) انتهت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سنة 23هـ.

عثمان حمل إلى البصرة، و كان علي (23ق هـ - 40 هـ / 600 - 661 م) بالكوفة، و الحسن في وقته صبي من الصبيان (22) لا يُعرف، ولا له ذكر، والأثر الذي يُروى عن علي أنه دخل إلى جامع البصرة وأخرج القصاص إلا الحسن كذب باتفاق أهل المعرفة...

وقد صنّف ابن الجوزي مجلداً في "مناقب الحسن البصري"، وصنف أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي جزءاً فيمن لقيه من الصحابة، وأخبار الحسن مشهورة في مثل "تاريخ البخاري". وقد كتبت أسانيد الخرقه؛ لأنه كان لنا فيها أسانيد، فبيّنتها ليعرف الحق من الباطل، ولهم إسناد آخر بالخرقة المنسوبة إلى جابر، وهو منقطع جداً.

وقد عُقل بالنقل المتواتر أن الصحابة لم يكونوا يُلَبِّسون مُريديهم خرقه، ولا يقصّون شعورهم، ولا التابعون، ولكن هذا فعله بعض مشايخ المشرق من المتأخرين. (23)

ونجد هنا أن أهل المعرفة بالأخبار وصنعة الحديث حتى من الصوفية يقرّون بانقطاع السند؛ لأنهم يُدركون أن الحسن البصري لم يأخذ عن الإمام علي - رضي الله عنه - لا خرقه ولا حديثاً، ولا سمع منه شيئاً قط، إلا أن كثيراً من مشايخ التصوف يُجمعون على خلاف ذلك.

من أجل ذلك، يجد الباحث في تراجم أهل التصوف من المحدثين أو المحققين عدم التفاتهم للخرقة المرقعة، خاصة من ناحية السند لآل البيت، ولا يعني وقوع بعض الأفاضل في خطأ رواية السند أنه صحيح، بل التواتر الحاصل من أهل الطائفة والثقة في ورع وتقوى المشايخ يُفقد العالم أحياناً التنبيه للتحقيق، ويكسبه نوعاً من الثقة والطمأنينة، كما أن بعضهم راعى الجانب المعنوي والتربوي فيها؛ ولم يحلّ عن سلاسلها، فرواية أسانيدها لم تكن أيام ظهورها، بل هي محاولة لإكساب الخرقه الناحية الشرعية، بإثبات نسبتها لعهد الصحابة والخلفاء الراشدين بعد ظاهرة تقديسها والمغالاة فيها في أواخر القرن السادس وبدايات القرن السابع.

ويرى بعض الباحثين أن محاولة إسنادها كانت حادثة لظروف أثّرت في الصوفية بعد مخالطتهم للباطنية الرافضة، وتسلسل الإسماعلية للزوايا الصوفية طلباً لتشجيع القوم أيام الدولة العبيدية (الفاطمية)، وهرباً من ملاحقة القضاء أيام الدولة الأيوبية والمماليك.

يقول ابن خلدون في بيان ما أحدثه بعض المتصوفة من مخالفات ذات الأصول الرافضية الإسماعلية الباطنية، مما لم يكن عليه العهد من مشايخ التصوف المتقدمين: "ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية: الكلام في "الكشف" وفيما وراء الحس.

(22) عمره 14 سنة.

(23) منهاج السنة النبوية: ابن تيمية، ج 8، ص (34 - 38).

وظهر من كثيرٍ منهم القولُ على الإطلاق "بالحلل والوحدة"، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة؛ لقولهم بألوهية الأئمة، وحلول الإله فيهم. وظهر منهم أيضًا القول "بالقطب" و"الأبدال"، وكأنه يحكي مذهب الرافضة في "الإمام" و"النقباء".

وأشربوا أقوال الشيعة، وتوغَّلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى جعلوا مستند طريقهم في "لبس الخرقه" أن عليًّا - رضي الله عنه - ألبسها الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك عنهم بالجَنيد من شيوخهم.

ولا يُعلم هذا عن عليٍّ من وجه صحيح، ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعليٍّ - كرم الله وجهه - بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدى، وفي تخصيص هذا بعليٍّ دوَّهم رائحة من التشيع قوية، يفهم منها ومن غيرها من القوم دخولهم في التشيع، وانخراطهم في سلكه. (24)

وكلام ابن خلدون نفيس في فهم التسرُّبات العقدية التي حدثت أيام الدولة العبَّيدية للطوائف السُّنية؛ فقد علم من أخبارهم مناهج الباطنية في الدعوة و استعمال "التقيَّة" والتلبس والتدليس، وأكثر الأحوال التي يخالطون الناس بها هي أحوال الصوفية، بإبداء الزهد والورع والتقشف والتشبه بهم (25) وكان من أيام آخر خلفائهم لما أحسوا ضعف الدولة أن انتظم كثير منهم في الزوايا وتغلغلوا وسط الصوفية لنشر المذهب الإسماعيلي، ثم كان أن سقطت الدولة، وطاردهم صلاح الدين الأيوبي؛ فمنهم من فر، ومنهم من تحقَّى بين المريدين بالخانقوات والزوايا.

سألاً: تحقيق مسألة لبس الخرقه.

(24) المقدمة: ابن خلدون، ص 178.

(25) غالب دعاة الرافضة الذين نجحوا في نشر مذهبهم؛ نجحوا التصوف ظاهرًا لهم في الدعوة؛ ففي دعوة ابن حوشب الرافضي في اليمن اعتمد في الطور الأول لحركته على التوجه السلمي الدعوي؛ "لأنه الأقرب إلى العامة في ذلك الوقت.. فأظهر الزهد والتقشف والصلاح ابتغاء الوصول إلى غايته".

- ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن: سيف الدين القصير، ص 59.

ومن "بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبدالله الشيعي حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء.. وفيما بين 288هـ إلى 289هـ وصل أبو عبدالله الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة، وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج، واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة، وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم".

- الدولة الفاطمية: علي محمد الصَّلابي، ص 37.

قال السهروردي: "كانت طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الحرق، ولا يُلبسونها المريدين." (26)

وإن كان متقدِّمو الصوفية من مشايخ الكتاب والسنة - قبل ظهور الطرق - يُنكرون على أتباعهم لبس المرقع وكل ما يوحي بالفقر والحاجة، ويجعلونه من الرياء وطلب الشهرة، أو من علامات التسؤل للناس بإظهار الفاقة، وآثارهم كثيرة في "رسالة القشيري" و "الطبقات" للسلمي، وليس من مظاهر الطائفة التزام لبس الصوف، ولا هم قالوا بوجوب لبسه، وذا فيه آثار كثيرة عن مشايخ التصوف، وإن كان بعضهم لبس الصوف فاشتق منه الاسم؛ لأن الصوف من علامات الزهد، وهو أدنى مطلب للزاهد كيما يستر جسده، وأقل ما يُرجى من الستر، غير أنهم لم يلزموا به ولا التزموه كلهم كعلامة على الطائفة، بل كان في بعضهم، فعرفوا به، مثل طائفة البكَّائين الذين اشتهروا بمجالس البكاء الجماعي، وطائفة الجوعية الذين اشتهروا بكثرة الصيام والتقلل من الزاد، ولقب الفقراء الذين اشتهروا بترك كل متاع الدنيا إلا الضروري، والنَّسَّاك لتفرغهم للعبادة واعتزلهم شؤون الدنيا، وغيرها من الألقاب التي تظهر كلما اشتهرت وتميزت طائفة من الصوفية بشيء عن غيرها، لكن جمعها لقب الصوفية؛ لأن أول ما اشتهر وشاع وميَّزهم عن غيرهم، فقد كان أمثالهم قبله يسمون بالعباد والنساك والزهاد وغيرها، إلا أن منهجهم في الدعوة والمواظ والمواجد استدعى تسمية تميزهم عن غيرهم، وتفرز من ليس منهم.

والتزام المرقع والحرق ظاهرة طارئة على التصوف أيام العبيديين لمخالطتهم للرافضة، وازداد التعلق بها كمظهر للصوفية أواخر عهد الأيوبيين وبداية المماليك، فقد ظهر فيهم العجب، وسمع منهم العجاب، وكثر بين الصوفية الدجالون، وتصدَّر المجذوبون مراتب الأولياء، وتهافت الناس على المجانين، وصار أهل الخرافة قدوة الأميين، وكثر المشايخ الأميون الذين لا يدرون من الكتاب شيئاً. فكان أوائل أهل التصوف أهل تعب، ثم ورثهم جيل الذهب، فكان أن خلفهم جيل الحطب، وكان الزهد لدى أهل التصوف من السلف حُرقة، وصار عند القوم حُرقة.

وكل ما يُروى عن عمر بن الخطاب، أو علي بن أبي طالب، وجابر - رضي الله عنهم - أو غيرهم غير ثابت ولا أصل له، ولم يكن عهد الصحابة ولا من أتبع هديهم التزام حلية تميزهم عن غيرهم، ففقيرهم فقير، وغنيهم يحدِّث بنعم الله عليه ظاهراً، وذا ما كانت عليه سيرة أكابر مشايخ التصوف قديماً، من مشايخ الكتاب والسنة، وكان عليه سيرة الإمام عبد القادر الجيلاني، و الإمام أبي مدين، والإمام أبي الحسن الشاذلي، و ابن عطاء الله السكندري، وغيرهم خلق كثير.

يقول ابن تيمية: "أما لباس الحُرقة؛ التي يلبسها بعض المشايخ المريدين، فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتمدة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها

(26) عوارف المعارف: السهروردي، ج 5، ص (110-114).

المريدين، ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه، وقد استدل بعضهم بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ألبس أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ثوبًا وقال لها: سنا، والسنا بلسان الحبشة: الحسن، وكانت قد ولدت بأرض الحبشة؛ فلهذا خاطبها بذلك اللسان، واستدلوا أيضًا بحديث "البردة التي نسجتها امرأة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فسأله إياها بعض الصحابة، فأعطاه إياها، وقال: أردت أن تكون كفنًا لي"، وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه؛ فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوب من النبي -صلى الله عليه وسلم- على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء، ولكن يشبه من بعض الوجوه خلع الملوك التي يخلعونها على من يولونه، كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة؛ ولهذا يسمونها تشريفًا.

وهذا ونحوه؛ غايته أن يجعل من جنس المباحات، فإن اقترن به نية صالحة كان حسنًا من هذه الجهة، وأما جعل ذلك سنة وطريقًا إلى الله - سبحانه وتعالى - فليس الأمر كذلك" (27)
قال ابن الجوزي "فأما صوفية زماننا، فإنهم يعمدون إلى ثوبين أو ثلاثة كل واحد منها على لون، فيجعلونها خرقًا ويلفقونها، فيجمع ذلك الثوب وصفين: الشهرة، والشهوة، فإن لبس مثل هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الدِّياج، وبها يشتهر صاحبها أنه من الزهاد، أفتراهم يصيرون - بصورة الرقاع - كالسلف؟

كذا قد ظنوا، وإن إبليس قد لبس عليهم، وقال: أنتم صوفية؛ لأن الصوفية كانوا يلبسون المرقعات، وأنتم كذلك. أتراهم ما علموا أن التصوف معنى لا صورة؟ وهؤلاء قد فاتهم التشبيه في الصورة والمعنى: أما الصورة، فإن القدماء كانوا يرقعون ضرورة، ولا يقصدون التحسن بالمرقع، ولا يأخذون أثوابًا جددًا مختلفة الألوان، فيقطعون من كل ثوب قطعة، ويلفقونها على أحسن الترتيع، ويخيطونها ويسمونها مرقعة." (28)

وسئل ابن تيمية عن لباس خرقه الفتوة، وما ينسب لها وما يجري من مراسم حال اللبس، فأجاب: "أما ما ذكر من إلباس لباس الفتوة السراويل أو غيره، وإسقاء الملح والماء، فهذا باطل لا أصل له، ولم يفعل هذا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - ولا أحد من أصحابه، ولا علي بن أبي طالب، ولا غيره، ولا من التابعين لهم بإحسان، والإسناد الذي يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة، هو إسناد لا تقوم به حجة، وفيه من لا يُعرف، ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا الإسناد المجهول الرجال أمرًا من الأمور التي لا تُعرف عنه،

(27) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ج11، ص 511.

(28) تلبس إبليس: ابن الجوزي، ص231.

فكيف إذا نسب إليه ما يُعلم أنه كذب وافتراء عليه، فإن العالمين بسنته وأحواله متفقون على أن هذا من الكذب المختلق عليه، وعلى علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - وما ذكروه من نزول هذا اللباس في صندوق هو من أظهر الكذب باتفاق العارفين بسنته، واللباس الذي يوارى السوء هو كل ما ستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح، أنزل الله - تعالى - هذه الآية لها كان المشركون يطوفون بالبيت عراً ويقولون: ثياب عصينا الله فيها لا نطوف فيها، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية، وأنزل قوله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: 31].

والكذب في هذا أظهر من الكذب فيما دُكر من لباس الخرق، وأن النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - تواجد حتى سقطت البردة عن رداءه، وأنه فرّق الخرق على أصحابه، وأن جبريل أتاه وقال له: إن ربك يطلب نصيبه من زيق الفقر، وأنه علّق ذلك بالعرش، فهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة، فإن النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف ولا سماع دفوف وشبابات ولا رقص، ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك، ولا قسمه على أصحابه، وكل ما يروى من ذلك، فهو كذب مختلق باتفاق أهل المعرفة بسنته. " (29)

سابعاً: مصنفات عن الخرق:

ألّف أهل الطرق الكثير من الرسائل والكتب في لبس الخرق المرقعة وأسانيدها لدى شيوخهم؛ ومنها:

1. "الفتوحات القدسية في الخرق العيدروسية"؛ لعبدالقادر بن الشيخ العيدروس (ت1038هـ).
2. "البرقة المشيقة في ذكر الخرق الأنيقة وشيوخ الطريقة"، لعلي بن أبي بكر السقاف العلوي، (ت895هـ).
3. "لبس الخرق"؛ لمحي الدين بن عربي (ت638هـ).
4. "رسالة في لبس الخرق"؛ لأبي الشامات الدمشقي الحنفي (ت1341هـ).
5. "ريحانة القلوب في التوصل إلى المحبوب"؛ ليوسف بن عبد الله الكردي الكواراني (ت768هـ).
6. "إتحاف الأصفياء برفع سلاسل الأولياء"؛ لأبي الفيض الزبيدي.
7. "إتحاف الفرقة الفقرية الوفية بأسانيد الخرق القادرية"؛ للكتاني.

(29) مجموع الفتاوى: ابن تيمية الحارثي، 5، ج 11، ص 85.

8. "البرقة المدهشة في لبس الخرقة الصوفية"؛ لأبي المحاسن القاوقجي الطرابلسي الشامي.

9. "السفينة العراقية في لباس الخرقة الصوفية"؛ لحمد بن عراق الدمشقي (ت933هـ).

10. "قاعدة في لباس الخرقة"؛ لابن تيمية.

خاتمة:

تبين في ثنايا البحث أن مقاصد الخرقة المرقعة لدى الطرق الصوفية هي الروابط التربوية والتعليمية التي تفضيها عملية التورث والتزكية المعنوية والعلمية للمريد من طرف شيخه، وكانت عناية الطرق بمراسيم لباس الخرقة كبيرة، وعقدت لها آداب وصنفت لها أذكار ومواسم ومجالس خاصة.

واتضح من التحقيق الحديثي لجميع روايات السلاسل لإلباس الخرقة أنها ضعيفة، وبها علل كثيرة، وهو ما بينه كبار محدثي الصوفية، ممن لهم دراية بعلم الرجال و العلل. مع ذلك يبقى للخرقة الصوفية هيبتها التربوية التي يتمسك بها غالبية الصوفية، لما يرون فيها من امتداد معنوي لأصول المشايخ و الوراثة الرمزية للمشيخة عنهم.

قائمة المراجع:

- أبجد العلوم؛ الموشى المرقوم في بيان أحوال العلوم: صديق بن حسن القنوجي؛ تح: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية: بيروت، ط 1، 1978.
- ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن؛ سيف الدين القصير، دار الينابيع: دمشق، ط 1، 1993.
- إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي أبي حامد، دار المعرفة: بيروت، ط 1، دت.
- البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ تح: فوزي عطوي، دار مصعب: بيروت، ط 1، 1968.
- التصوف في مصر إبان الحكم العثماني: توفيق الطويل، مكتبة الآداب: الإسكندرية، ط 1، دت.
- التصوف.. المنشأ والمصادر: إحسان إلهي ظهير الباكستاني، إدارة ترجمان السنة، لاهور، ط 1، 1986.
- التعرف على مذهب أهل التصوف: أبي بكر إسحاق الكلاباذي؛ ضبط: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية: بيروت، ط 1، 1993.
- روح البيان في تفسير القرآن (تفسير الحقي): إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار الفكر: بيروت، ط 1، دت.
- تلبس إبليس: عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج؛ تح: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1985.
- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث: عبد الرحمن بن علي بن محمد الزبيدي الشافعي، دار الكتاب العربي: بيروت، ط 1، 1985.
- دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية: صالح الرقب، محمود الشوبكي، الجامعة الإسلامية: غزة، ط 1، 2006م.
- رسالة الشرك ومظاهره: مبارك بن محمد الميلي الجزائري؛ تح: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية، الجزائر، ط 1، 2001.
- السلسلة الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف: الرياض، دت.

- سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الدَّهَبِي؛ تح: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط 1، د.ت.
- طبقات الأولياء: ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد الأنصاري؛ تح: نور الدين شديبة، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط2، 1994.
- العرب في صقلية: إحسان عباس، دار الثقافة: بيروت. ط 1، 1975.
- عوارف المعارف: أبو حفص عمر السهروردي، نشر مؤسسة الحلبي: القاهرة، 1968.
- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، مكتبة ابن تيمية: الكويت، ط(3)، 1986 م.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات؛ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني؛ تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط2، 1982.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي بن محمد الشوكاني؛ تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، المكتب الإسلامي: بيروت، ط2، 1407.
- قصة الحضارة: ويليام جيمس ديورانت؛ ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل: بيروت، ط1، 1408 هـ - 1988 م.